

**مقال: مسلمو الأندلس ومحاكم التفتيش من أنساب ابن حزم إلى
أخلاق الفجر**

المصدر: مجلة الهلال

بقلم: عبد الرحمن شاکر

رقم العدد: 5

تاريخ الإصدار: 1 مايو 1988

إعداد: موقع الشيخ عبد الحق التركماني

<https://www.turkmani.com>



مسامحة الأندلس ومحاكم التفتيش

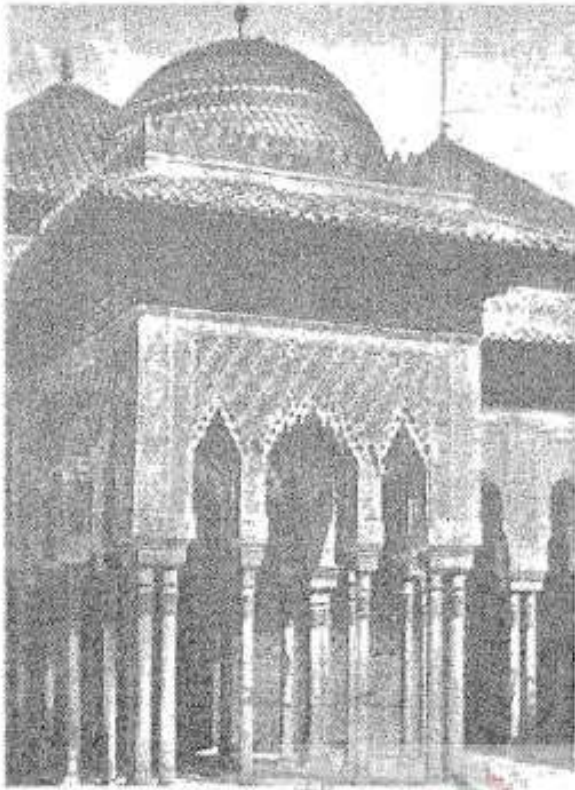
أنساب ابن حزم إلى أخلاط العجبر

بقلم: عبد الرحمن شاكر

للأندلس ذكرى عزيزة غالية في قلوب العرب
والمسلمين ، ولأساة سقوطها جرح في نفوسهم يظل ينزف
حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وكل ما يستجد من
معلومات عن الأندلس يستهوي نفوسهم . وقد نشر الدكتور
عبد اللطيف عبد الحليم ، أخيرا كتابا عنوانه « فصول من
الأندلس - في الأدب والنقد والتاريخ » ، هذه الفصول كتبها
أسبان معاصرون ، معظمهم من أحفاد الأندلسيين ، وجلهم
مستشرقون ، ورغم تنوع هذه الفصول ، كما يدل عنوان
الكتاب ، فإن سياقها واحدا . يكاد ينتظمه ، حتى لكان صورة
تاريخية بعينها ترتسم من خلال هذا الاختيار من جانب
المترجم ، ويصح عليها قول القائل :
قد عرفناك باختيارك إذ كان دليلا على اللبيب اختياره !

راه يختلس كيس ذهب في غفلة منه !
وكيف تواتر هذا الخبر في أكثر من
كتاب ، وروى عن أكثر من شخصية ،
مرة برويه عربي عن معاوية بن أبي
سفيان ، وأخرى فارسي عن كسرى ،
ومؤداه الكلمة التي ذهببت مثلا ، حينما
قال الأمير معلقا على ما أخذ منه : " لقد
أخذه من لا يبرده ورأه من لا يفضحه ، ! .

فالفصل الأول من الكتاب ، هو مقالة
بقلم المستشرق الأسباني « فرناندو دي
لاجرانا » ، يبحث فيه خبرا عن
« عبدالرحمن الثاني » أمير قرطبة
(الأرجح أنه من نعرفه باسم
عبدالرحمن الناصر) ، مؤداه أنه بلغ
من كرمه ورقة شمائله أن أعفى أحد
اتباعه من الفضيحة أمام أقرانه حينما



أما الفصل الثاني ، فهو ترجمة لمحاضرة القيت في قرطبة بمناسبة الذكرى المئوية التاسعة لابن حزم يوم ١٥ مايو ١٩٦٣ ، بعنوان « ابن حزم عالم الانساب » ، القاها المستشرق « خايننتو بوسك فيلا » ، بدأ بداية غريبة جدا ، حيث يقول :

« قال البعض إن الوسيلة الوحيدة لفهم الإسلام أن تجعل من نفسك مسلما (!) ، وإنما قوام المعرفة في عقولنا يتحقق عن طريق الاعتقاد ، والعلم عن التأمل ، والفضيلة عن العقيدة وما هو دنيوي بما هو ديني ، وباختصار ، هي سلسلة من التحولات هذه تصل بالرجل المسلم إلى وحدة تامة ، وبمنهجه الديني هذا ، وبشكول حياته ، وبعقائده السياسية بلغ أي تطور حضاري يكتشف ٤٠٠ مليون من الرجال » .

قرطبة في عصر الخلافة ، وابن حزم وعصره ، ثم ينتقل ليورد رأيا لمستشرق آخر في ابن حزم ، يقول :

« السيد ميغيل اسين ، في عمله العظيم عن ابن حزم القرطبي ، وفي بعض دراسات أخرى عن ابن حزم ، نعتة بأنه العبقري القرطبي المؤرخ ، الشاعر ، الأديب ، الفقيه ، عالم الكلام ، المفسر ، الأخلاقي ، المنطقي ، الكاتب السياسي ، النفساني ، الجدلي ، الميتافيزيقي ، اللغوي ، المؤلف في فلسفة القانون ، حصيلة غريبة من كل هذه النعوت ، التي تشكل هذه الصورة الانسانية والعلمية ، التي تحدد أعظم المظاهر الشريفة والوجوه المركبة التي

وبالطبع لم يذهب المستشرق إلى هذا المد ولكنه يقول : « مؤرخ الإسلام ينبغي أن يهتم بمفهوم التاريخ نفسه ، وبمغزاه وبالحركة الإسلامية - قبل كل شيء - وبالرجل المسلم باعتباره عنصرا متوحدا أو غير متوحد في النسق الاجتماعي والثقافي للشعوب ، وينبغي أن يدرسه في كل أبعاده الانسانية ، وفي أصوله وتطوراته وفي كل ظواهره » !!

« هكذا يقدر تاريخ الإسلام ، والرجل المسلم بكونه عاملا اجتماعيا في هذا التاريخ ، ففي فترات قليلة ، وصور انسانية يسيرة في أسبانيا الإسلامية تقدم امكانات كثيرة وحوافز لدراسة

ساحر الأندلس ومحاكم التفتيش

واختلاط علم الفلك ، بخرافات التنجيم ، لنعبر إلى الوجه الآخر لصورة المسلمين في إسبانيا أو بالتحديد بقاياهم ، بعد سقوط دولتهم ، وطرده الكثير منهم من هناك ... حيث يطالعنا فصلان ، أو مقالتان ، الأولى منهما بعنوان « الموريسكيون ومحكم التفتيش بالأندلس - اقليم قونقة » ، بقلم المستشرق « مرثيوس غرسيه أرنيال » ، وهي الفصل الرابع من الكتاب ، والثانية ، أو الفصل الخامس من الكتاب بعنوان « أصل موريسكي محتمل للتفتيش » . بقلم « إيلينا بيتي مارنيت » .

● محكم التفتيش

تواجهنا في هذين الفصلين لفظتان ، أحدهما كلمة « الموريسكيون » ويعني بهما العرب ومن سواهم من المسلمين الذين وفدوا معهم إلى الأندلس في شمال أفريقيا ، واللفظة الثانية ، كلمة « المدجنون » واعتقد أن المقصود بها من ثم توطينهم من هؤلاء المسلمين في أماكن معينة ، وإدماجهم في المجتمع المسيحي ، فيقول مرثيوس غرسيه أرنيال :

« في كل أنحاء قشتالة ، خلال بدايات القرون الوسطى ، كانت جماعة المدجنين قليلة العدد ، وذات طابع مدني على وجه العموم ، تزوب في الجماعات المسيحية ، مما يجعل جماعة المدجنين تختلف عن جماعات أخرى منهم ، وبصفة خاصة أولئك الذين يعززون إلى مملكة أراجون » .

من خلالها يستطيع التوصل إلى مخالطة الرجل ، ومعرفته التي لا توجد بالتحديد في عمله باعتباره عالم أنساب » .

ويتحدث المحاضر بعد ذلك عن ثلاثة أعمال لابن حزم في علم الأنساب ، هي كتب « الفصل » ، « ونقط العروس » ، و « جمهرة أنساب العرب » ويقول : « أخباره على هذا النمط ، تجمع إنسابه من خير الكتب المشرقية ببيانها الكامل ، مستوعبة البطون والقبائل العربية ، المنتقلة إلى شبه الجزيرة الأيبانية . وقد خول لها ابن حزم مكانا معلوما في كتابه ، في ملحق عن أنساب البربر ، وفي اقليم محدد لهذه القبائل في إسبانيا الإسلامية مثل أنساب قبيلة « بني قسي » المولدين بالغر الأعلى » .

وفي موضع آخر يقول : « توجد بعض اشارات تحملنا على الظن بأن ابن حزم قد وقع على أخبار في الأنساب بنفسه ، وبتصاله المبائلر بالعائلات القرطبية أولا ، هكذا عندما يتحدث عن « بني عبادة » ، قوم ، كانوا يقيمون في المدينة ، « معنا بباب العطارين في قرطبة » .

ونودع هذين الفصلين الشريفين في أول الكتاب ، أحدهما عن سماحة الخليفة الأندلسي ، والثاني عن كتابة العبقري ابن حزم عن أنساب قومه في الأندلس ، لنمر مرور الكرام بفصل ثالث عن التنجيم في إسبانيا الإسلامية ،

البحث ، حيث يقول : « تراوح عدد الموريسكيين في نواحي قونقة في بداية ١٥٧٠ إلى خمسة آلاف . وينقل عن سجلات المؤرخين الإسبان :
 « أغلب الموريسكيين يعملون حفارين ، وحصادين ، وبستانيين ، وسعاة على الأقدام ، وبغالين ، وحدادين ، ويعملون في حرف أخرى ، وقد اشرفوا على قبول أى طعام مهما كان ردينا ، ينفقون الزهيد ، ويكفى انهم لا يشربون النبيذ ، شئ يميزون به علينا . »

ثم يورد كاتب البحث إحدى وثائق محاكم التفتيش ، وهي وثيقة « يوسف الفاشي - فقيه مسلم من قريته مولينا سنة ١٤٩٥ » ، ونص الاتهام فيها يبدأ كالتالي :

« يوسف الفاشي فقيه مسلم من قرية مولينا اقنع بطريقة شيطانية في محاولة إغراء بعض النصارى أن يعاونوا إلى دين المسلمين ، وستة محمد ، قائلا : إن دين محمد هو الدين الحق الذي ينقذ الإنسان ... إلى أن يقول : « ويبنى المتهم بحجته مدافعا عن نفسه بأنه لم يصنع شيئا من هذا ، بل انه يجيب على الإهانات التي يذفون بها محمدا ودينه ، وعلى الكلمات التي يلقون بها إليه من نافذة المسجد وهو يخطب ، فيجب إذن أن يستتاب ، ويعاقب بالنفي . »

وعن وثائق محاكم التفتيش يقول الكاتب :

« محفوظ في وثائق اسقفية قونقة ذكرى دعوى عن بيت مال محكمة

، ومع ذلك فإن الجماعة الإسلامية في إقليم قونقة لابد أن تكون كثيرة العدد في حقبة سابقة على استرداد المدينة (حسب ما ذكره مؤرخو الإقليم) . كما هو متوقع من إقليم واقع على الحدود . »

ويقول : « في سنة ١٥٠٢ صدر مرسوم باعتناق المدجنين في مملكة قشتالة الديانة المسيحية ، وطبق مرسوم التنصر في السنة نفسها ، لا الوضع ، ولا العدد الثافة لجماعة قونقة يبدو متغيرا ، ولا يضطرب إلى حد بعيد بسبب هذا المرسوم . مع الاستثناء الذي يفرضه تدخل عنصر جديد : محاكم التفتيش ، ومنذ لحظة التنصر بات الموريسكيون تحت المراقبة ، وتحت القضاء الديني ، فإذا كانوا قبل ذلك ، بوصفهم مسلمين - رسميا - براء من الحكم عليهم بسبب جرائم دينية ، إلا في ظروف استثنائية كانوا يعملون بالتبشير ، فإنهم من لحظة التنصر هذه سيكونون على الدوام هدفا لظفون الارتداد والزندقة . »
 « ومنذ السنوات الأولى من القرن اشتكى الموريسكيون من المطاردات التفتيشية ، ومن تعنت العقوبات المالية ، ومن المصادرة الدائمة للثروات ، هكذا كان الحال ، مما جعل من المحتتم صدور مراسيم متعددة من العفو ، لكي يتوازن الوضع للمتنصرين الجدد . »

ويشير الكاتب إلى صدور مرسوم بطرد الموريسكيين من غرناطة بحيث تشتتوا في أرجاء الأندلس ، ووصل بعضهم إلى إقليم قونقة موضع هذا

محاكم التفتيش ، الاتهام فيها موجه الى « سياستيان الوقشي ، من اهل أوروبا عند نهر المنصورة في مملكة غرناطة ، يعيش الآن في قرية سوكونيا موسى ، ومقيد في اسقفية اقلش سنة ١٥٤٧ ، ويبدأ الاتهام هكذا : « أولا المذكور اعلاه كما يبين من اصله من سلالة وذرية المسلمين ، وبسبب حبه لشريعة محمد ... قام مع بعض المسلمين بتمرد في مملكة غرناطة ، ثم يورد دفاع المتهم ، الذي تخالل ، قال واعترف بأنه كان مسيحيا حتى ثورة مملكة غرناطة ونهر المنصورة ، ... اما من حيث كونه قائدا لانلس قدموا من هذا المكان ... فإن الناس قد عينوه واختاروه قائدا ... قائلين له انه رجل شريف بسيط ... وكان في هذه الثورة رجل لم يذكر اسمه قد قال له : « انه لايجوز ان يكون رجل في محله لايعرف قراءة العربية ولا كتابتها ، وقد بدأ الرجل هذا يعلم صلحينا قراءة العربية وكتابتها ... وان هذا الشخص نفسه قد علمه الوضوء والصلاة ، قائلا له ان هذا طيب لكي يصعد المسلمون إلى السماء ، وهكذا توحا ، فغسل يديه ووجهه ، وذراعيه ، ورجليه ، واستنحى من امام ومن خلف ، وغسل أماكن أخرى من جسده ، ثم وضع قميصا نظيفا ، وذهب مع مسلمين آخرين الى كنيسة بورشينا للصلاة ... وصرح بان مسلمي البربر الذين قدموا الى هذه الثورة علموه صيام رمضان وهو شهر قمرى كامل ، ...

التفتيش ، ودوق مدينة سالم حول بعض المورسكيين المتهمين في محلة أركوس ، بين سنوات ١٥٧٥ ، ١٥٨٣ ، وهم ١٦ متهما بينهم ست نسوة تذكر أسماءهم ، كلهم أدينوا بمصادرة أموالهم ، وثلاثة حكم عليهم بالإعدام ، والباقيون قبلوا المصالحة ، ويقول : « إن الأماكن التي يعزى اليها أكبر عدد من المتهمين فقد ساعدت على رسم خريطة - بصفة عامة - للإسلام المتخفى في الاقليم ، . ويقول في موضع آخر : « في ذرعنا أن نستنتج ملاحظة أولى - وسوف نتأكد بمحتوى القضايا - هي ان درجة قوة الاسلام قد بلغت حدا كبيرا في تلك المناطق التي تزداد فيها كثافة السكان الموريسكيين وتجانسهم ، : ويقول أيضا : « وكما ترى فيما بعد فإن ابنية الحياة الدينية كان يحافظ عليها في اعماق أماكن الاسلام المتخفى ، حيث كانت تلعب النساء دورا بارزا بوصفهن راعيات للتقاليد والعبادات والشعائر الدينية ، وناقلات لبعض التعاليم ، شيء يتواتر بكثرة عبر مطالعة القضايا ، أن يكون المتهم قد تعلم العبادات الاسلامية من احدى نساء الأسرة ، ، وإن لم تكن كل النسوة كذلك ، ففي موضع آخر يقول « في سوكونيا موسى ، شهدت امرأة ضد زوجها قائلة : « إنه يعلمها العربية في المساء ، وهي تقول له انها لا تريد أن تفهم ولا أن تتعلم العربية ، ! . ويورد المستشرق وثيقة أخرى من

بقولها . حين نقرر ان كلمة فنقي من الممكن ان تكون من اصل عربي فإن هذا لا يستلزم ضرورة ان كل القنقيين كانوا موريسكيين . ولا ان كل الموريسكيين كانوا قنقيين . ولكنه مما لا يقبل الريب ان كثيرا منهم تحت قسر الظروف الخاصة بنفيهم قد بحثوا من خلال هذا العمل عن وسيلة للحياة لكي يتفادوا الاضطهادات التي تضغط عليهم ... هم امشاج من اجناس متباينة وبصفة خاصة اهل غرناطة (عرب ، شوام ، بربر ، عناصر بلدية ، يهود قداماء ، مع وشل متباين من دم اسود) ومن اناس متخلفين جدا مثل الفرس والهنود (الاتراك) هذه العناصر غير المتجانسة كان عليها ان تبحث بكل الوسائل عن الحياة دون ان يلحظهم احد . ممارسين مهنة تكفل لهم الحياة حرة بلا قيود .

وفي اواخر الكتاب يورد مترجمه بحثا عن المسرح الفلسطيني . كتبه « بدرى مارتنيث مونتياث » . يبدو فيه تعاطفا مع القضية الفلسطينية بقوله : « ان انشاء دولة اسرائيل الشاذ والجائز جورا مطلقا في الاراضي الفلسطينية فتح حقبة مختلفة اختلافات جذريا . واستلزم نقطة انطلاق جديدة لهذه الجماعة القومية العربية . والذي يظهر متمكنا بوضوح في الحقل السياسي ... ويؤرخ للمسرح الفلسطيني بان نشاته قد ارتبطت بنشأة المقاومة .

وحق للفلسطينيين ان يقاوموا بكل سبيل . قبل ان يحيق بهم وببلادهم مصير الاندلس واهله !

اما المبحث الثاني الذي كتبه . إلينا بيني مارتنيث . بعنوان « اصل محتمل للقنقيين » فتقول فيه « إن القنقيين ... ليسوا حسب ما ترى . سوى سلالات الموريسكيين المرحل اثر اجيال متعددة . والذين ظلوا في اسبانيا والقوا الحياة البدوية . هربا من مرسوم الطرد سنة ١٦١٠ . وواضح ان هذا الوصف ينطبق على من يعرفون الآن عندنا باسم « العجر » ! وتجري الكتابة بحثا لغويا حول اصل كلمة « فنقي » . والمعنى التحقيري الذي تدل عليه . « باعتباره - اي القنقي - مجرما يهاجم الملكية الخاصة . ويقوم باعماله في عصابات صغيرة حسب ماتحدده دائرة معارف لاروس » . وتتساءل عما إذا كان اصل هذه الكلمة عربيا من « القين » الذي قد تعنى العبد . او الحداد . او المغني . وقد تدل ايضا على المخبث ! . حتى إذا وصل الموريسكيون الى القرن السابع عشر تنقل الكاتبة عن الاب . ب . اشار قردوتة . « قوله عنهم : « كانوا اصحاب مسلخ وخذع . ولعب ورق . وقبل كل شيء هم اصدقاء جدا . (لهم ايضا ابواق وصاجات وطبول للرقص . والمرح . والغناء . وترانيم الصباح . والمرور باللبساتين والعيون . وكل مايجلب المتعة الحيوانية التي يذهب اليها في جلبة وزعيق مشوش أولئك الفتية القرويون . وواضح ان هذه كلها من صفات واعمال العجر .

هذا ما انتهت اليه السلالات التي كان ابن حزم يجمع انسابها ايام كانت لهم الاندلس ؟ وتختتم الكاتبة بحثها